الفصل الخامس والعشرون

غريزة الاستطلاع

تدل المشاهدات على أن النمل يتخذ كشافة لجيشه لترشده إلى خبايا الأمور.

ومما لا جدال فيه أن نفس الطفل كثيرة التطلع إلى الأشياء. فالرضيع إذا قربت إصبعك من فمه تعلق به عسى أن يكون ثدى أمه ، ويبكى ليستطلع حنو أمه عليه . والأم الواقفة على سر هذه الغريزة إذا رأت طفلها يتحبب لنيل غرض معين لا تقرب منه هذا الغرض ، وإنما تحمل الطفل إليه ليقترب هو منه ، وتكرار هذا يعوّد الطفل السعى إلى مرغوبه . نطرق أبواب أصحابنا فنسأل الطفل الذى يقابلنا : هل والداك فى المنزل ؟ فلا يجيب عن سؤالنا بل يُلقى إلينا سؤالا مثله : متى جئت من السفر؟. وهل اشتريت لى لعبة ؟. وهل شاهدت ما اقتنيته ؟. إلخ. فتحت يوما كيسا أمام ابن لى يناهز الرابعة من عمره فقال : هل تعطينى جنيها ؟. ولما رآه أمامه لم ينتظر الجواب ، بل وجّه سؤالا آخر : من أين أتيت ؟. وهكذا اطردت أسئلته بنظام يدل على أن نفسه جوالة مستطلعة.

والطفل عندما تؤثر فيه روعة الطبيعة يشرئب إليها فيسأل جلساءه أسئلة غامضة رغبة فى كشف غموضها : لماذا تشرق الشمس ؟ كيف تهب الرياح؟. كيف يستحيل الحب شجرا ؟ فما أصبر الحكماء على الإجابة عنها ، لأنها عماد الحقيقة فى ذهنه ، ومسبار يعرفون به غور ذكائه . ونبراس يهتدون به إلى معرفة إرادته. أما الجهلاء فينفرون من سماعها ، وينكرون عليه عرضها ، وربما أساؤوا إليه سترا

لجهلهم ، ويكون حرمانه الإجابة قاضيا على ما عنده من رمق ، فتنطفئ فيه جمرة النبوغ وسرعان ما تخمد.

رأيت بعض الصبيان يطرقون أبواب المنازل فى غفلة أصحابها ، ثم يهربون ويقفون بعيدا يستطلعون أمرا يتوقعونه من الساكنين ، ونرى الناس مكتظين فى الطرق فتتساءل عن السبب ، وربما لا يكون المسؤول أعلم به من السائل . نعم قد يتجاهل الإنسان فيسأل الناس عن أسباب الأمور ونتائجها وهو عارف بها ، ليقف على ما عندهم من ذكاء وعلم كما كان يفعل سقراط.

ويبلغ الاستطلاع غايته عند قائد الجيش الذى يتأثر عدوه ، وعند العالم المدقق والكاتب والحاسب وعند القاضى لتحرى جانب الصدق متى تجهمت الأمور وتلاطمت أمواج المنازعات ، وعند السياسى الذى يمارس الطبائع ، ويقيس حاضر الأمة ومستقبلها بماضيها ، وعند المعلم الذى يتفقد الميول ويساير الملكات الذهنية ، ولكل شخص ميزة فطرية لو استطلعها المعلم وسار بها فى طريق الكمال لمهدت لصاحبها سبيل النبوغ ، ومن غفل عنها لحقه الفشل لا محالة.

بحكم هذه الغريزة يتسرع الطلاب ، فيسألون المعلم عن أمر لم يتمم تمحيصه وينقدونه قبل استيعابه ، وقبل معرفة أسبابه لأن حب الاستطلاع كالبخار يجيش به صدر المشتاق إلى تعرف الحقائق ، ولذلك تراه وهو فى مضمار البحث والتنقيب لاهيا عن نفسه ، متحملا آلام المشقة . لعلك سمعت وصف الموكب الملكى الذى أعد لتشييع جنازة إدوارد السابع ملك الإنجليز وما أحاط بها من مظاهر الأبهة والجلال ، تسير فيها الجند من أقطاب المعمورة وبينهم الملوك حملة التيجان ، والأمراء والأعيان ؟. ذهب بعض أصحابى إلى لندن مبكرين إلى حيث تسنى لهم رؤيتها ، ووقفوا على أقدامهم زهاء إحدى عشرة ساعة ، والناس من حولهم يموجون حتى انسدت بهم المنافذ على اتساعها ، وشق عليهم أن يتحركوا أو يستريحوا أو يأكلوا **أو يتنفسوا ، صبروا على ألوان العذاب** لتكتحل أبصارهم برؤية

هذا الموكب البديع ، وليستطلعوا جهد الحكومة فى ترتيبه وتنسيقه ، فصارت نار نفوسهم المضطربة بردا وسلاما.

قال معلم لتلاميذه وهو يستطلع جولان أفكارهم : رأيت طفلا محموما اختلط بإخوانه فأعداهم ، اذكروا لى أمثلة تشبه ذلك . فأجاب أحدهم بأن عينه رمدت فأصاب الرمد عينه الأخرى ، وأن طفلا حصب فأعدى الأطفال المختلطين به ، وهكذا عرضوا من الأمثلة ما يفيد أن عدوى المرض تنتقل من عضو إلى آخر ، ومن جسم إلى آخر ، كما تنتقل الحرارة فى أجزاء قضيب أحمى طرفه ، وفهموا أن الذرات السابحة فى الجو تخرج من المريض فتصيب السليم ، وأن الذباب يتهافت على المرضى وعلى الأقذار فيحمل بأرجله جراثيم المرض ويلقح بها الأصحاء ، وخليق بمن يريد الاحتفاظ بصحته ألا يسكن الأحياء القذرة.

وللاستطلاع شروط تجب مراعاتها لجنى ثمراته وهى : التمكن من الفهم قبل السؤال والانتقاد ، اللهم إلا إذا عرضت فى أثناء ذلك البحث شكوك تعكر صفاء الحقيقة. فإذا كان هذا فأنصح للمعلم ألا يجيب السائل أو الناقد نصا ، بل يحيله إلى سابق علمه ، ويطالبه بإجالة فكره ، أو يحثه على مراجعة رفقائه ، أو على الاطلاع على أبواب يقرؤها من كتاب ، كذلك يلقى المعلم على مسمع تلاميذه حكاية تنم عن خلال محمودة ، ويستطلع مبلغ حلهم لعناصرها ، أو يعرض مصورا على مرأى منهم ، ثم يستره عنهم ويستفسرهم مشتملاته كما وشكلا ولونا ، وكذلك يحاورهم فى غرض معين وينبههم على التوسع فيه بمراجعة كتب يسميها ويستحث همتهم على تمحيصه والاستدلال عليه وذكر ما فيه من ضعف وقوة ، وأخيرا يلقى عليهم قضايا العلوم ، ويطالبهم بتأييدها بالبراهين ، أو يكلفهم حل المسائل وتطبيق ذلك على ما درسوه.

obeikandl.com